

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الخامسة - العدد التاسع عشر - خريف ١٣٩٤ ش / أيلول ٢٠١٥ م

ص ١٠٩ - ٨٥

أدب الريف في رواية "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى

رضا ناظميان (الكاتب المسؤول) *

بيام كرمي**

الملخص

كان الريف من أهم الموضوعات التي رددتها الكتاب في آثارهم بما فيه من صفاء، وتقاء، وطبيعة لم تفسدها المدينة المصطنعة وبما فيه من ظلم، وعسف، وحرمان، وتمييز يشوه وجوهه ويكدر صفائه. فقلما نجد شاعرا أو كاتباً لم يكتب عن الريف وما يعانيه القرويون من ظلم، وتعسف وحرمان أو ما يزين الريف من طبيعة ساحرة وطيور مغردة وأشجار باسقة خاصة الرومانسيين الذين قد تغنوا طويلاً بالريف ومباهجه، والواقعيين الذين شتموا عن السواعد وقاموا بالعمل الجادّ والدؤوب من أجل التعبير عن مشاكل الريف والصعوبات التي يواجهها الفلاحون الذين يقضون معظم وقتهم في المزارع مقابل أجر زهيد لا يسد جوعهم ولا يملأ بطنهم. فمن منطلق ذلك، تعرّضنا في هذه المقالة لمدى أهمية أدب الريف وصداه في الأدبين الإيراني والمصري، كما قمنا بمقارنة الروايتين اللتين قد تعدّان قمة هذا الأدب في كلا البلدين. فقد درسنا أدب الريف في مصر وإيران وأجرينا مقارنة بين روايتي "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى وتحدّثنا عما يميزهما وعن أوجه التشابه والتفاوت في الروايتين. وفي هذا المجال وعلى مستوى المغزى والمضمون تطرقتنا إلى هذه المحاور: قداسة الأرض، والدعوة إلى الثورة وسيطرة الواقع؛ وعلى مستوى التقنية والشكل، تناولنا هذه الركائز: اللغة، والشخصيات، ومسرح الأحداث، والصراع.

الكلمات الدلالية: أدب الريف، دولت آبادى، كليدر، الشرقاوى، الأرض.

*. أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران.

** طالب مرحلة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائي، طهران، إيران.

Kpayam63@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصرى

تاريخ القبول: ١٣٩٤/٢/٢٥ ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٦/٢٥ ش

المقدمة

تعتبر الرواية إحدى الأجناس الأدبية التي تكون صدى عن ظروف المجتمع أو الأفكار والملاحظات التي تكمن في ذهن المؤلف. فعبارة أخرى، هي فن أدبي تستخدم كوسيلة للتعبير عن واقع الحياة وقضايا المجتمع وعن مشاكل الإنسان وأزماته وكل ما يعرقل مسيرته في الحياة وكما أنّها ذات عناصر مختلفة مثل الشخصية، والزمان، والمكان، والسرد، والحوار، والحدث، والحبكة، والأسلوب والهدف، وتحتوي على العديد من الشخصيات، لكل منها بواعثها وانفعالاتها الخاصة كما يقول طه وادي: «الرواية من أكثر الفنون الأدبية قدرة على التعبير عن أزمات الإنسان وقضايا الواقع من خلال حساسية خاصة تجيد طرح الأسئلة وإثارة الانتباه.» (وادي، ١٩٩٦م: ٣) إنّ أدب الريف من الموضوعات الهامة في آداب جميع الأمم على اختلاف مواقعها وفي كل العصور لأنّه يحكى لغة الطبيعة والفطرة «لأنّ الريف هو الأقرب إلى الطبيعة والفطرة ومن ثم تكون الطباع الإنسانية فيه بعيدة عن زيف المدينة.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ١١٧) من جانب آخر، إن الرابطة بين الفن القصصي والواقعية قوية جدا، وأكثر النتائج الروايبى والقصصى بشكل عام وربما أعمقه تأثيرا في وجدان القارئ (العربى والفارسى) تشكّل في ضوء الوعى بالواقعية. وبشكل آخر يمكن القول «أن الفن الروائى قد اكتسب صورته الناضجة في عصر الواقعية.» (المصدر نفسه: ٥٣) إن الروايات الواقعية عن الريف، ودون المبالغة، هي الأعمال الأكثر نضجا من الناحية الفنية وهي الأكثر عددا من الناحية الكمية. من الأعمال الروائية في الأدبين الإيراني والعربى التي تدخل طور الأدب الواقعى هي "الأرض" للكاتب المصرى عبدالرحمن الشرقاوى و"كليدر" للكاتب الإيراني محمود دولت آبادى. وهنا قد قمنا بالمقارنة بين الروائيتين على أساس مبدأ العدالة الاجتماعية ونظام العمل على الأرض والأواصر الوثيقة بين أبناء القرية الواحدة، كما أشرنا إلى الجوانب الفنية لهاتين الروائيتين.

أسئلة البحث

١- في العصر الذى نرى ونسمع ملامح الحداثة وصخب وضوضاء الحياة الميكانيكية

لماذا يختار الروائي الريف كبيئة ومادة لتقديم آرائه ومعتقداته؟ هل اختار الكاتبان الشرقاوى ودولت آبادى الريف كمسرح لأحداث روايتهما لأنهما عاشا تجربة مماثلة لكفاح البسطاء في قريتهما أو الاعتقاد بالحرية والعدالة ساقتهما إلى الحديث في هذا المجال؟

٢- ما هي الرسالة التي يريد أن يعلنها الكاتب الذي يتحدث عن الريف ومظاهره؟ هل تعدّ الواقعية الاشتراكية، السبب الوحيد في كتابة رواية الريف أم هناك أسباب أخرى؟

٣- هل يضحى دولت آبادى في "كليدر" والشرقاوى في "الأرض" بالموضوع من أجل فكرة يؤمنان بها ويقرّانها أم نجدهما ملتزمين بالذات والموضوع سوياً؟ عبارة أخرى هل تعدّ كلتا الروائيتين وسيلة للتعبير عن مقاصد أيديولوجية ونوايا حزبية؟

٤- فما هي طبيعة الموضوعات التي يرصدها الروائي المصري والإيراني في الريف؟ هل تعدّ "الأرض" وملكيتهما الفكرة الرئيسية للكاتبين أم هناك مواضيع أخرى تشغل بالهما؟

فرضيات البحث

١- بادئ ذي بدء يبدو أنّ كلتا الروائيتين تعدّان وسيلة للتعبير عن مقاصد أيديولوجية ونوايا حزبية للكاتبين؛ ولكن بعد قراءة عميقة وإمعان النظر فيهما نجد وندرك أنّ رواية "كليدر" تتجاوز حدود الأيديولوجية ودعايات حزبية وتدعو إلى ما هو أفضل وأعلى من كل شيء وهو الحبّ، غير أنّ رواية "كليدر" الأرض "كليدر" تدخل في إطار الأيديولوجية وتدعو إلى الاشتراكية.

٢- لا تختص رواية الريف بالواقعية الاشتراكية بل هناك بعض الأعمال والآثار تتجاوز عن هذه الرواية الأيديولوجية البحتة وتقوم بالبحث والحديث عن مشاكل اجتماعية وثقافية يعاني منها المجتمع الريفي وتقدّم حلولاً مناسبة وملائمة وهذا ما نشاهده عملياً في "كليدر" حيث إننا في بعض الفقرات والأسطر نشاهد أنّ الكاتب يتخلّى عن سرد الرواية مقدّماً آرائه الفلسفية، والسايكولوجية والاجتماعية.

٣- إنَّ معظم كُتَّاب أدب الريف خاصة الشرقاوى ودولت آبادى عاشوا تجربة كفاح البسطاء في قريتهم بإحساس متزايد بكرهية الظلم، وحبّ العدل وضرورة الكفاح في سبيل الحرية، وبعبارة أخرى إنَّ الظروف السائدة على البيئة كانت باعثة ساهمت في خلق هذه الآثار وأنَّ الكتاب ذاقوا وأحسّوا ما كتبوه.

٤- إنَّ الأرض تلعب دوراً أساسياً في كلتا الروايتين وأنَّ دولت آبادى، والشرقاوى وسائر الكُتَّاب في أدب الريف ينظرون إلى الأرض نظرة قداسة وإجلال، لأنَّ الحياة في الريف تقوم على أساس الأرض والعمل فيها والصراع من أجلها.

سوابق الدراسة

إنَّ أهمَّ كتاب قام بدراسة الأدب الريفى هو "الريف في الرواية العربية" للدكتور "محمد حسن عبدالله"، أستاذ النقد الأدبى بجامعة كويت؛ أمَّا بالنسبة إلى رواية "الأرض" يمكننا القول إنَّ الدراسات الموجودة عن هذه الرواية محدودة، وما اشتهر منها في الكتب والمجلات المختصة لم يتجاوز في كثير من الأحيان دراسة المضامين، أو المقارنة مع أعمال أخرى. ومن أشهرها كتاب "الأرض والصدى" لمحمد البدوى، دار المعارف تونس ١٩٩٧م؛ أمَّا هذا لا يصدق على "كليدر" لدولت آبادى لأنَّ هناك دراسات عميقة ومحورية تلقى الضوء على بعض جوانب هذه الرواية الشهيرة ومن جملتها: ١- الوصف في أعمال دولت آبادى خاصة "كليدر"، لزهراء زارع في فرع الأدب الفارسى بجامعة أصفهان ١٣٨٦ش. ٢- شجرة ذات ألف جذر، دراسة أعمال الكاتب محمود دولت آبادى من البداية وحتى "كليدر"، لكتايون شهربراد، طهران ١٣٨٢ش. ٣- دراسة بناء ألفاظ اللهجة السبزوارية في رواية "كليدر"، لبروين صدايى، جامعة طهران ١٣٦٥ش. لقد شملت هذه الأبحاث والدراسات، العديد من الملاحظات والاستنتاجات النقدية الصحيحة ولكن ما يميز هذه الدراسة غير المسبوقة - حسب معرفتنا - عن المقارنة بين هاتين الرائعتين في الأدب الإيرانى والعربى، هو التركيز على الواقعية الاشتراكية والأرض كمسرح للروايتين وأيضاً النوايا الحزبية المحتملة عند الكاتبتين. والمنهج الذى نوظفه في هذه المقالة هو المنهج الوصفى التحليلى.

أدب الريف في مصر

نلاحظ بواكير الأدب الريفي في مصر عند رائد هذا الاتجاه الدكتور "محمد حسين هيكل" الذي كتب أول رواية ريفية عربية (وادي، ١٩٩٦م: ٩١) والتي تسمى "زينب". غنى عن البيان أن هيكل، لعب دوراً أساسياً في الاتجاه الريفي للرواية العربية عامة وللرواية المصرية خاصة حيث تنقسم الرواية الريفية في مصر إلى قبل محمد حسين هيكل وبعده وهذا يبين مكانة ومقدرة هذا الكاتب المصري.

هناك كثير من الكتاب المصريين تحدّثوا عن الريف ومظاهره، فنظراً لكثرة عددهم نشير فقط إلى أسمائهم دون الدخول في صلب آثارهم والحديث عنها. فمن الكتاب الذين أولوا الريف والحياة فيه اهتمامهم، يمكننا الإشارة إلى محمد حسين هيكل في "زينب"، وطه حسين في "دعاء الكروان"، ومحمد عبدالحليم عبدالله في "لقطة"، و"بعد الغروب" و"شجرة اللبلاب"، و"ثروت دسوقي أباطه في" هارب من الأيام" و"قصر على النيل"، وتوفيق الحكيم في "يوميات نائب في الأرياف"، ونجيب محفوظ في "ميرامار"، وعبد الرحمن الشرقاوى في رواياته الثلاث "الأرض"، و"قلوب خالية" و"الفلاح".

رغم أنّ فنّ الرواية قد نشأ في حضن المدينة والمطبعة الأوروبية فإنه نشأ في مصر في حضن الريف أو القرية ثمّ خرج إلى المدينة «فالفنّ الروائي ابتدع ليعبر عن المدينة وليس الريف أو القرية وارتباط ازدهاره بنشأة المدن الكبيرة وانتشار التعليم لأنّ الرواية فنّ يقرأ كما ارتبط بمحصول المرأة على قدر من الحرّية الاجتماعية وبخاصّة حق العمل وحق الحب.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ٧)

وتصوّر الرواية الريفية المصرية الفلاح بريئاً فقيراً مستغلاً، والإقطاعيّ ظلماً مستغلاً ولعلّ تصوير جرائم الإقطاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين هو الموضوع الأوّل في الرواية المصرية ونظيرتها الإيرانية. إنّ الفلاح في الريف يقضى معظم أوقاته في الأرض لكي يأكل من ثمرة جهده وكدّ جبينه ولكن هيهات أن يتحقّق هدفه ويرى ثمرة عمله. لقد تثمر الأرض أشهى ثمرات ولكن هذه الثمرات لا تدخل في بيوت الفلاحين بل ترسل إلى الأسواق لكي يستفيد من بيعها الملاك ويتلذّد من تذوّقها أبناء المدينة، أمّا الفلاحون وبنوهم تكون ثمرة جهدهم في الأرض حسرة أليمة تذيب قلوبهم وهذا ما

يشوّه صورة الريف ويجوّها إلى مستنقع يفوح منه رائحة قدرة كريمة تؤذى كل ما يمرّ بها. هذا ولكن كلّ هذه المظالم التي يستغلّها هولاء الظالمون لا يوجب استسلام الفلاح ولا تخمد إرادته وسعيه في سبيل الحرية والعدالة وهذا ما نراه في رواية "الأرض" للشرقاوى والتي سنتحدّث عنه فيما بعد.

إنّ كلّ هذه المظاهر السلبية هي التي تسوق الكتاب وتدفع الشعراء إلى الكتابة عن الريف وعمّا يعانیه الريفيون وهذا لا ينحصر على مصر بل يشمل كل بلدان العالم الثالث الذي يكون نظام الزراعة فيها إقطاعيا ولذلك نرى الكتاب والشعراء على الرغم من إعجابهم بجمال الريف وخلابة الطبيعة فيه يتألّمون من شقاء، وبؤس وعداء يعانى منها الريفيون داعين برفع مستوى الفلاح الصحى والثقافى بالدراسة والتعليم.

أدب الريف في إيران

يعود ظهور الروايات التي تتحدّث عن الريف وعالمه في الرواية المعاصرة الإيرانية إلى العقد الثالث من القرن الثالث عشر الهجرى الشمسى، أمّا هذا النوع من الرواية بلغ ذروته في العقد الرابع والخامس حيث اهتمّ الكثير من الروائيين بالحديث عن الريف وخلقوا أعمالا رائعة وتعتبر رواية "دختر رعيت" (١٣٢٧ش) لمحمود اعتماد زاده" (به آذين) والتي تتحدث عن قرى منطقة جيلان أهمّ رواية كتبت في العقد الثالث كما كتب "بزرگ علوى" سنة ١٣٢٦ش القصة القصيرة "گیله مرد" وأشار فيها إلى نضال ومقاومة الفلاحين في "جيلان" ببيان قوى وأوصاف ناطقة من الطبيعة الخلابة والخضراء لشمال إيران كما يمكننا تسمية القصة القصيرة "چرا دریا طوفانی شد" (١٣٢٨ش) للكاتب الشهير الإيراني "صادق چوبک" قصة ريفية لأنّ الكاتب يشير فيها إلى أحداث تقع في البحر وبهذا يصل إلى تجاوب وانسجام بين البيئة المحلية وما يحول في داخل الشخصيات مقدّما ديناميكية وحيوية الطبيعة الريفية في جنوب إيران. (انظر: بشيرى، ١٣٩٠ ش: ١٦٥-١٧٨)

أما من أهمّ الأعمال الروائية التي تتحدّث عن الريف وعالمه في الأدب الفارسى فيمكننا الإشارة إلى "شريف جان شريف جان" لمؤلفه تقى مدرسى، و"نفرین زمين"

لجلال آل احمد، و"دهكده پرملال" لأمين فقيرى، و"عزاداران بيل" لغلامحسين ساعدى، و"از اين ولايت" و"سالمهاى ابرى" لعلى أشرف درويشيان، و"كليدر" لمحمود دولت آبادى.

كليدر والأرض

واخترنا رواية "كليدر" نموذجاً من صدى الريف في الأدب الفارسى لأنه لم نتخذ جانب التطرف إذا قلنا إن هذه الرواية من أكبر وأفضل أعمال روائية لا في إيران فحسب بل في العالم إذ إن كاتبها لا يطرح رؤية واحدة بل يعبر فيها عن وجهات نظر مختلفة كأن الكاتب قرأ وأدرك هذه الجملة من الفيلسوف الألماني الكبير فردريك نيتشه: «كيف نستفيد ونتمتع من كتاب لا يرشدنا إلى كتب أخرى» (يالوم، ١٣٩١ش: ١٣٤) فقارئ "كليدر" حينما يقرأ هذه الرواية فكأنه قرأ عدة روايات وذلك بسبب توسع الأفكار فيها.

يعتبر محمود دولت آبادى أهم كاتب إيراني تحدت عن الريف وعالمه وأكثرهم تأثيراً فهو يصور في أعماله هواجس ومشاكل أهل الريف ببيان قوى وساحر يدل على عبقريته، فهذا الكاتب الشهير الإيراني خلد اسمه في تاريخ الأدب الإيراني برأئته الأدبية "كليدر" والتي يعتبرها البعض أفضل رواية كتبت في إيران.

وأما عن سبب اختيار رواية "الأرض" نستطيع القول بأن للأرض أصداء واسعة ترن في أرجاء الوجود فإنها دعوة للإنسان الفعّال إلى أن يحبها فيعشقها فيلتصق بها ويدوب فيها عشقا وفعلا، فإن للأرض منطقتها حيث لن تخضع إلا لمن افتداها بعرقه، وجهده، وحياته، وقلبه وهذا ما ينطبق على "كليدر" تمام الانطباق ويصدق كل الصدق. نعم إن لـ"كليدر" و"الأرض" صوتاً وصدى يسمعهما الإنسان ولكنه ربما لا يدرك ما وراءهما بسبب رموز تكمن فيهما. فنأمل عبر دراستنا هذه أن نعطي روايتي "الأرض" و"كليدر"، حقهما حيث نرسم ملامح هاتين الروائيتين عبر الخوض في غورهما.

وبما أن عبدالرحمان الشرقاوى، يتقدم على دولت آبادى في الميلاد والوفاة، نبدأ حديثنا معه ثم نواصل كلامنا بالغور في عالم دولت آبادى خاصة رآئته الأدبية الشهيرة

”كليدر“.

عبدالرحمن الشرقاوى صاحب رواية ”الأرض“

ولد الشرقاوى فى ١٠ نوفمبر عام ١٩٢٠م بقريه الدلاتون بمحافظة المنوفية وتوفى فى اليوم والشهر نفسه عام ١٩٨٧م. بدأ تعليمه فى كتاب القرية ثم انتقل إلى المدارس الحكومية حتى تخرج فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣م. بدأ حياته العملية بالمحاماة لكنه هجرها لأنه أراد أن يصبح كاتباً فعمل بالصحافة فى مجلة الطليعة فى البداية ثم مجلة الفجر وعمل بعد ثورة ٢٣ يوليو فى صحيفة الشعب ثم صحيفة الجمهورية ثم شغل منصب رئيس تحرير صحيفة ”روز اليوسف“ وعمل بعدها فى جريدة ”الأهرام“ كما تولّى عدداً من المناصب الأخرى منها سكرتير منظمة التضامن الآسيوى الأفريقى وأمانة المجلس الأعلى للفنون والآداب. (خفاجى، ١٩٨٩م: ١٢٩)

تلعب البيئة دوراً أساسياً فى تكوين شخصية الأديب وهذا ما نراه عملياً فى عبدالرحمان الشرقاوى. عاش الشرقاوى فى بيئة مضطربة تعانى من الفقر، والاستعمار والظلم حيث ذاق الثلاثى المرعب المتمثل فى الفقر، والجهل والمرض كما واجه الاستعمار الإنجليزى والهتافات التى يرددها الفلاحون فى المظاهرات وكل هذا أثّر فى الطفل الصغير كل التأثير وتجلّى فى آثاره الكثيرة فيما بعد خاصة فى رواية ”الأرض“ التى هى موضوع هذه الدراسة.

لم يكن الشرقاوى بمعزل عن مجريات الواقع بل على العكس نراه أول كاتب فى مصر تخلّص نفسه من الفضاء الرومانسى ومال إلى الروايات الواقعية كاتباً رواية ”الأرض“ وهى أول رواية واقعية مكتوبة عن الريف. إنّ هذا الكاتب المصرى «كشعراء جيله تأثر بالشيوعية وانتمائه إلى اليسار حيث كان عضواً فى جماعة أنصار الإسلام اليسارية آنذاك». (كمال، ١٩٩٠م: ٤٠)

كان عبد الرحمن الشُّرقاوى واحداً من الكتاب العرب المسلمين الذين فهموا الإسلام على حقيقته. فقد أدرك أنّ جوهر الإسلام هو مساندة الفقراء والمستضعفين فى الأرض كما يقول: «لو كان كارل ماركس قرأ القرآن ودرس السنّة المحمّديّة لما احتاج أن يؤلّف

رأس المال.» (المصدر نفسه: ١١٦)

ظلَّ الشُّرْقَاوِي حَتَّى النِّهَايَةِ اشْتَرَكَى النِّزْعَةَ رَغْمَ اسْتِنَارَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَلَكِنِ الْإِشْتِرَاكِيَّةِ الَّتِي تَوْمَنُ بِالْإِسْلَامِ وَتَقِيمُ فَرَائِضَ الدِّينِ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالصُّوْمِ وَالزَّكَاةِ. يَقُولُ ابْنُهُ الدُّكْتُورُ شَرِيفُ الشُّرْقَاوِي حَوْلَ أَيَّامِهِ الْأَخِيرَةِ: «كَانَ فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ دَائِمَ الصَّلَاةِ وَالْبِكَاءِ عِنْدَ سَمَاعِهِ لِلْقُرْآنِ.» (المصدر نفسه: ١٤٠)

كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الشُّرْقَاوِي أَدِيبًا، وَشَاعِرًا، وَصَحْفِيًّا، وَمَسْرُحِيًّا وَسِينِمَائِيًّا فَهُوَ طَرَقَ لُضَائِلَهُ الْمُنَشُودَةَ أَبُوَابَا كَثِيرَةً مِنَ الشُّعْرِ، وَالْمَسْرُحِ، وَالرَّوَايَةِ، وَالْقِصَّةِ الْقَصِيرَةِ وَالْمَجَالَاتِ الدِّينِيَّةِ وَتَرَكَ آثَارًا خَالِدَةً تَرَجَّمَتْ إِلَى لُغَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ وَفِيهَا يَلِي بَعْضُ آثَارِ هَذَا الْمَفْكَرِ وَالكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ: أَمَّا الرَّوَايَةُ فَلَهُ أَرْبَعُ رَوَايَاتٍ وَهِيَ: "الأرض" ١٩٥٤م، و"شوارع الخليفة" ١٩٥٧م، و"قلوب خالية" ١٩٥٧م و"الفلاح" ١٩٨٠م.

أَمَّا مَسْرُحِيَّاتُهُ فَهِيَ: "مأساة الجميلة" ١٩٦٢م، و"الفتى مهران" ١٩٦٦م، و"تمثال الحرّية" ١٩٦٧م، و"وطنى عكا" ١٩٦٩م، و"الحسين نائراً والحسين شهيداً" ١٩٦٩م، و"النسر الأحمر" ١٩٧٦م، و"أحمد عرابي زعيم الفلاحين" ١٩٨٥م.

وَأَمَّا فِي مَجَالِ الشُّعْرِ فَكَانَ لِلشُّرْقَاوِي دِيْوَانَانِ فِي الشُّعْرِ، الْأَوَّلُ يَحْمِلُ عِنْوَانَ قَصِيدَتِهِ الشُّهْرِيَّةِ "مَنْ أَبِ مِصْرِي إِلَى الرَّئِيسِ تَرُومَانَ" وَالثَّانِي يَضُمُّ مَسْرُحِيَّتَهُ مِنْ فِصْلِ وَاحِدٍ، وَبِمُجْمُوعَةٍ قِصَائِدٍ "تَمَثَالِ الْحَرِّيَّةِ" وَ"قِصَائِدٍ مَنْسِيَّةٍ".

ملخص رواية الأرض

تبدأ الرواية بقصة لعبة الفرح والتي دبرتها فتاة تسمى "وصيفة" مع بنات وأولاد القرية واقترحت فيها "وصيفة" أن تكون هي العروسة في هذه اللعبة ثم اختارت فتاة لدور الداية أمّا العريس فاخترت الراوى، غير أن هذه اللعبة لم تتم لأنّ الشيخ الشناوى وهو الرجل الدينى فى القرية دخل فجأة وشمّت العروس والعريس وطردهما من المصلّى ثمّ تدخل الرواية فى مسار آخر وتعرض قصة الفلاحين يناضلون الإقطاع والحكومة من أجل الأرض والماء. اشتعل فتيل الأزمة بين الفلاحين والحكومة بسبب تقصير عدد أيام الرى. إنّ رجال الهندسة حدّروا الريفيين بأنّ عدد أيام الرى أصبحت خمسة أيام بدلا

من عشرة أيام وهذا ما لا يقبله الريفيون ويتورطون بسبب ذلك في اشتباكات عنيفة مع رجال الحكومة وعبدالهادي بطل القرية أول من اشتهر لسانه متحدياً ومعارضاً هذه المبادرة من الحكومة.

دخلت القرية في الأزمة بعد هذا القرار الذي أصدرته الحكومة وتضاربت الآراء حول إيجاد حلّ ملائم، واقترح محمد أفندي وهو المدرّس الإلزامي أن يكتب عريضة إلى وزير الأشغال وقال إنّ محمود بك باعتباره نائب الحكومة يستطيع أن يحملها إليه فهو من معارفه وكتب محمد أفندي عريضة وإن اعترض محمد أبو سويلم باعتباره رئيس الخفراء السابق، ثم ذهب به إلى العمدة وهو أستاذ الخداع لكي يقدمه لمحمود بك ولكن حينما رأى محمود بك العريضة، جنّ جنونه وشتم العمدة وأهل القرية، وقال إنّ العريضة شديدة اللهجة وهو يكتب بنفسه عريضة أخرى. كتب محمود بك عريضة أخرى بنفسه ولكن لم يشر فيها إلى تعديل نظام الرىّ الزراعى بل جاء فيها موافقة أهل القرية على الطريق الزراعى لأنّ الباشا بدأ يتمم بناء قصره الكبير ويحتاج إلى دعم الحكومة، فإنّه يريد أن يشقّ الطريق الزراعى من أراضي الفلاحين الذين يرفضون هذه الفكرة.

وأمر العمدة الخفراء أن يذهبوا بالورقة التي عاد بها من عند محمود بك إلى أهل القرية لكي يجمعوا أصابعهم وأختامهم عليها ووضع جميع أهل القرية أختامهم على العريضة الجديدة إلّا "محمد أبو سويلم" و"محمد أفندي" و"دياب"، وبهذا دخلت القرية في أزمة أخرى وهى الطريق الزراعى وسيطرت حالة من الحزن والأسى على القرية بعد أن عرفوا أنّ العمدة استغلّ سذاجتهم وخدعهم مرة أخرى فهم أجمعوا على المقاومة والنضال حتى الرمق الأخير. ورغم إنذار الحكومة وتهديد محمود بك فقد كان الفلاحون قطعوا الجسر ورووا أرضهم ولم تقف الحكومة مكتوفة الأيدي أمامهم بل اعتقلت كثيراً من رجال القرية من بينهم محمد أبو سويلم، وعبدالهادي ودياب بسبب قطع الجسر فسيطرت مسحة من الحزن والألم والكآبة على القرية.

ولكن تم الإفراج عن المعتقلين وعادوا إلى القرية إلّا أنّ رجال القرية لم يستسلموا وقرّروا على مواصلة النضال فهم تسلّلوا إلى التربة وقذفوا الحديد في الماء، وبعد هذا أرسلت الحكومة رجال الهجانة إلى القرية وهم هبطوا بالكرابيج وانهاّلوا ضرباً على

الفلاحين وأمروهم بالرجوع إلى الدور وأخذ رجال الزراعة يقومون بحفر الحقل في أراضي القرية خاصة أرض محمد أبو سويلم، وحينما اعترض محمد أبو سويلم، هوى رئيس الهجانة على وجهه بكفّ وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال من عبدالهادى، ودياب وعلوانى في غرفة التليفون بدوار العمدة وتنتهى الرواية بعودة الراوى إلى مصر لتكميل دراساته الثانوية ونحن لا ندرى هل تمّ الإفراج عن المعتقلين أم لا؟ وهل انتهى مشروع الطريق الزراعى واستسلم أهل القرية أمام قوّات الحكومة أم لم ينته ولم يستسلم الناس؟

تعرض رواية "الأرض" قصة فلاحي إحدى القرى المصرية يناضلون الإقطاع والحكومة من أجل الأرض والماء وتحكى لنا الرواية عهد صدقى فى مصر وما يعانىبه الناس من القتل، والفقر والنفى بسبب إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقى «وفى تلك الأيام كانت القاهرة لا تهدأ أبداً وكنت أعرف من أحاديث إخوتى الكبار ومن الجرائد التى يحملونها أنّ رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنار بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز وكنت أراه يطلق فى القاهرة جنود الإنجليز حمر الوجوه ليحملوا له سلطانه على رقاب الناس.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ١٤) كما نرى عبدالهادى بطل القرية يصبّ جام غضبه على حزب الشعب الذى يدافع عنه الباشا وأعوانه فى القرية «يا جدع دى الحكومة حكومتهم والكلمة كلمتهم دا الباشا فى حزب الشعب اللى ماسك البرّ وحرارة بولعة. الله!! خبر إيه يا علوانى مش تأخذ بالك". (المصدر نفسه: ٥٢)

تحدّث رواية "الأرض" عن التمييز الطبقي الذى تعانى منه القرى المصرية مثل بقية قرى الشرق الأوسط وهذا ما تصوّره "وصيفة" فى الرواية قائلة: «فعلوانى وشيخ البلد الذى يشغله وحتى العمدة نفسه لا يساؤون فى البندر شيئا وقد حدّثها زوج أختها أنّه رأى المأمور الذى يهزّ الدنيا يرتجف أمام الحكمدار ورأى الحكمدار يرتجف أمام المدير ورأى المدير يقبّل يد وزير كان فى زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الإقليم.» (المصدر نفسه: ٣٧)

«لقد أثارت "الأرض" إبان صدورها ضجيجا لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامى وإدانتها لمصادر الإحباط والفساد فى الماضى والحاضر وساعدت على تكوين

تبار جديد في فنّ الرواية العربية هو الواقعي الاشتراكي.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ٩٥)
 إنّ الشرقاوى في "الأرض" يعيش صراعاً مؤلماً بين ما يشاهده من قسوة الحياة في
 الريف وما يرى أن يبشّر به من ثقة في المستقبل "لكن مع هذا الجوّ المفجع والمؤسف، نرى
 بوارق الأمل، لأنّ التقارب يحدث بين تلميذ "طلعت" وهو من الغرابوة وصبي راغب في
 تعلّم القراءة من أهل القرية وهذا ما نراه في "شجرة البؤس" لطف حسين و"ميرامار" لنجيب
 محفوظ و"الأرض" للشرقاوى. (أنظر: الشطى، ١٩٧٤م: ٣٥٨-٣٦٣)

محمود دولت آبادى

ولد محمود دولت آبادى سنة ١٩٤٠م في مدينة سبزوار لمحافظة خراسان حيث أنهى
 دراسته الإعدادية فيها. (أمير حسين جهلتن، فريدون فرياد، ١٣٦٨ش: ١٨٠) ثم ترك
 قريته متّجهاً إلى مشهد وبعدها إلى طهران حيث قضى معظم عمره في العاصمة الإيرانية
 مجرّباً فيها مهناً مختلفة. ثم تعرّف على شخصيات أدبية شهيرة وشارك في حلقاتهم وذلك
 بسبب شغفه الكثير بالعلم والتعليم وقد لا تتخذ جانب التطرّف إذا قلنا «إنّ مكانة دولت
 آبادى في الأدب المعاصر الإيراني تشبه كثيراً بالمكانة التي حظى بها الشاعر الكبير
 الإيراني أبو القاسم فردوسى في الأدب القديم مكانة متميزة بلا منازع لا يشقّ غبارها.»
 (بشيرى، ١٣٨٦ش: ٢٣٥)

إن الراوى الإيراني الكبير، دولت آبادى قد ركّز حياته على تأليف القصة والرواية،
 وخلف آثاراً خالدة في هذا المجال تكون حربية بأن تحصل على جائزة نوبل للأدب
 أو على الأقل ترشيحها لهذه الجائزة العالمية خاصّة رواية "كليدر" والتي بلغت ذروة
 الجمال والإبداع. ومن الجدير ذكره أن أغلب آثاره مترجم إلى لغات مختلفة نشير
 فيما يلي إلى بعض منها: القصة القصيرة: "انتهاء الليل"، و"أدبار"، و"عند أسفل منارة
 الولي شعيب"، و"تقيّد"، و"هجرة سليمان"، و"الظلال التعبى"، و"الصحرواى"، و"الرجل".
 والقصص الطويلة تقريباً: "السفر"، و"دعوى بابا سبحان"، و"راعى البقر"، و"مع شبيرو"،
 و"من الأزقة الملتفة"، و"عقيل عقيل". والروايات مثل: "مكان سلوج الخالى"، و"كليدر"،
 و"الوقت المنقضى وكبار السن".

ملخص عن الرواية

"كليدر" هو قصة رجل باسم "گل محمد" وهو من العشائر الكردية التي أبعدها "نادرشاه" من غرب إيران إلى شمال شرقي خراسان بسبب تمردّها، وضغطت على هذا الرجل ظروف غير مؤاتية مثل القحط، وتلف الحيوانات والإعدام حيث لا يمكنه دفع الضريبة إلى مأموري جابي الضرائب في الوقت الذي يصرّ الماموران على دفع "گل محمد" الضريبة أو يرافقهم إلى المدينة لتوضيح عدم تمكّنه من دفع الضرائب، ولكن رفض "گل محمد" أن يرافقهما إلى مقرّ الشرطة إذ كان قد شارك من قبل في دعوى "جارگوشلى" والتي أسفر عن قتل رجلين ولذلك لم يكن له بدّ إلاّ قتل المامورين وفعل هذا بمساعدة عمّه "خان عمو" حيث يفاجئان المامورين بالهجوم ويقتلونهما فصار "گل محمد" بطل "كليدر" متمردًا وطاغيا على الحكومة. إنّ رجال الأمن يعتقلون "گل محمد" أخيرا ويلقون به في سجن "سبزوار" ولكنّه ينجح أن يهرب من السجن بمساعدة "ستار" وهو من أعضاء حزب "توده". إنّ "گل محمد" بفراره من السجن وقتله المامورين وابن خالته "على أكبر حاج بسند" الذي باح بسرّ قتل المأمورين في مقرّ الشرطة، أعلن تمردّه على الدولة علنيا وهذا ما يعرفه "گل محمد" وكلّ أعوانه وأقاربه فلذلك قام بتجنيد الناس لأنه يعرف جيدا أنّه لا يمكنه الصمود والمقاومة أمام الحكومة. كانت ردود فعل الناس إيجابية معه وذلك بسبب القانون الخاصّ الذى ينفّذه بين الناس والذي كان يقوم على أساس العدل والإنصاف حيث يتّجه إليه كثير من الناس من المنطقة حتى يحلّ بطل "كليدر" مشكلتهم ويخلصهم مما يعانون منه، فهو أصبح عيارا حقيقيا يذكره الناس في مجالسهم ومحافلهم بالاحترام والفخر كأنّه نبيّ بعث لكى ينقذ الناس من الظلم والإخفاق. فحدثت معارك كثيرة بينه وبين قوآت الحكومة وكانت نسبة الانتصار لـ"گل محمد" أكثر بكثير من الحكومة وهذا أدّى إلى انتشار شهرته وتناوله الناس بالإشاعات مدحا وقدحا فأصبح "گل محمد" متمردًا وقامت الحكومة بتعيين جائزة لمن يقتله ويقطع رأسه.

حظيت "گل محمد" بمكانة رفيعة بين الناس وضاع صيته يوما بعد يوم وهذا ما لم تقبله الحكومة حيث أرسلت جيشا حاشدا بقيادة "سيد شرضا" و"جهن خان" للإطاحة

به ورهطه فاقترح أقارب "گل محمد" حشد الناس وتسليحهم إلا أن "گل محمد" رفض طلبهما وقال إنه لا يريد تهيب الفلاحين وتسليحهم لمنع الهزيمة وهو يعرف جيدا أن نهايته قريب وبعد أيام يقتل ولذلك يصرف أفراده المقاتلين مثل "ستار" و"خان عمو" وأخويه "بيگ محمد" و"خان محمد" عن المعركة النهائية ولم ينصرف إلا أخوه الأكبر "خان محمد" وذلك لأن "گل محمد" قال له إنَّ حقه شديد ويمكنه الثأر من الأعداء، فنشبت الحرب بين الطرفين وأشعل كلاهما النيران فلم يلبث حتى قتل "بيگ محمد" ثم "خان عمو"، و"ستار" و"زيور"، زوجة "گل محمد"، إلا أن "گل محمد" جرح وأغمى عليه وقطع رأسه وهكذا تنتهي رواية "كليدر" بنهاية مأساوية.

يستلزم علينا القول بأن رواية "كليدر" تعدّ واحدة من أفضل الروايات الثلاث في تاريخ الأدب الإيراني إن لم نقل أفضلها والتي كتبها الروائي الشهير والعبقري الإيراني محمود دولت آبادي «فيصوّر فيها أحداث بعض قرى خراسان في فترة ١٩٤٥-١٩٤٧ش.» (امير حسين جهلتن - فريدون فرياد، ١٣٦٨ش: ١٤٧)

ويعدّ "كليدر" أطول رواية في تاريخ الأدب الإيراني، كما يعتبر صاحبُ الكتاب رائعه أكمل كتاب ألفه: «رواية "كليدر" من حيث الكمية، والكيفية، وبنية الرواية، واستخدام الشخصيات، والحبكة، واللغة، والمنولوجات، وبيان الأحاسيس والمشاعر الإنسانية في الشخصيات المختلفة والتعبير عن الأحوال والتصرفات تعتبر أكمل عمل يمكنني أن أعمله باعتباري مؤلفاً وروائياً وربما يمكنني القول إنَّ رواية "كليدر" فاقت تصوراتي من بعض الجهات كما لا يزال تصيبي الدهشة قليلا حينما أقرأ بعض مقاطع منها.» (إسحاقيان، ١٣٨٣ش: ١٠١)

المحاور المشتركة بين الروائيتين

الأرض وقداستها

تعتبر قضية الأرض من الشواغل الأساسية للرواية العربية فالشرقاوي في روايته "الأرض" يركّز اهتمامه على الحياة الريفية ويتحدّث عن قداسة الأرض وأهمية العمل بها حيث يعتبرها من الخطوط الحمراء التي لا يمكن المساس بها فهو يرتبط المكانة

والشأن لأهل القرية بالأرض حيث إنّ الذين يمتلكون الأرض يحظون بالاحترام والمكانة، والذين لا يملكونها، لا يملكون شيئاً حتى الشرف: «الذى لا يملك فى القرية أرضاً لا يملك فيها شيئاً على الإطلاق حتى الشرف.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٣٧٨) إنّ الشرقاوى حصر مفهوم الكرامة والإحساس بالشرف فى ملكية الأرض والعمل أمّا هناك نقطة أخرى من المحتّم علينا الإشارة وإلقاء الضوء عليها وهى أنّ الشرقاوى لا يعطى جلّ اهتمامه بمجرد ملكية الأرض بل يعطى دوراً هاماً لعمل صاحب الأرض فى أرضه حيث يجعل العمل عنصراً أساسياً لصاحب ومالك الأرض. فهو يجذب بعبد الهادى لأنّه يمتلك الأرض ويعمل بنفسه فيها ولا يؤجره للآخرين.

وكذلك للأرض فى "كليدر" أهمية كبيرة حيث إنّ الذين يمتلكون الأرض يحظون بالكرامة والعزة أمّا الذين لا يملكون الأرض فيستغلّون ويهانون بيد الملاك والإقطاعيون، ولكن من الضرورى أن نشير إلى الملاحظة التى توجد فى "كليدر" حول الأرض كما كانت موجودة فى "الأرض" للشرقاوى وهى أنّ مجرد امتلاك الأرض لا يكفى بل يجب أن يعمل الرجل الذى يمتلك الأرض فى أرضه ويأكل من ثمرة كده وعرق جبينه لأنّ الأرض مثل العرض والشرف، والإنسان لا يعطى شرفه للآخرين؛ قال قدير لنا على: «زمين مثل زن آدم است. مرد كه زنش را به ديگرى وا نمى گذارد. مال وحشم هم.» (دولت آبادى، ١٣٨٧ش: ٨٢٦)

الدعوة إلى الثورة

يعتقد "ستار" أنّ الثورة هى أفضل سبيل لتخلّص المجتمع من مشاكله واضطراباتة وهذا ما اعتقد به الشرقاوى فى "الأرض" فقال ستار، وهو رمز الثورة فى رواية "كليدر" لدولت آبادى: «فقط انقلاب! اگر ملتی می خواهد زندگانی کند، باید بتواند بجنگد. جنگ با دشمنی که مشخصاً آن را می شناسد. خودت می گویی ما مردمی هستیم با دست خالی، پای برهنه وشکم گرسنه. خوب در این جنگ انقلاب ما مردم چی از

١. إنّ الأرض مثل الزوجة والرجل لا يترك زوجته للآخرين وكذلك المال والحشم.

دست مى دهيم. (المصدر نفسه: ١٨٠٥)

يبدو أنّ صاحب "كليدر" أخذ هذا المضمون من كتاب "الخبز والخمر" لسيلونه حينما قال "دون بائولو لـ "كريستينا" «في مجتمع كمجتمعنا ليست الحياة المعنوية إلا الحياة الثورية.» (سيلونه، ١٣٥٣ش: ٣٩١)

وكذلك نلاحظ هذا المفهوم من الثورة في رواية "الأرض" لأنّ الشرقاوى لا يعتقد بالتصالح ذاهبا إلى السبيل الوحيد لاستقرار العدل والمساواة ألا وهى الثورة للإطاحة بحكومة صدقى وأعوانه.

إنّ الشرقاوى في رواياته كاتب اشتراكى تقدّمى ينتصر للكادحين ولا يرى إمكان التفاعل أو التصالح بين الجانى والضحية ويرى أنّ العمل الجماعى هو صيغة الحياة وضمان التقدّم وحماية المكاسب. هذا ما تقوله مضامين رواياته وما يرتفع كشعارات محدّدة في روايته الأخيرة بصفة خاصّة. فهو وجّه نقدا لادّعاء لرواية "زينب" التى كتبها محمد حسين هيكل عام ١٩١١م (عبدالله، ١٩٨٩م: ٩٥) ويقول: «على أنّ قرية زينب لم تعرف طعم الكرايبج كما عرفت قريتي ولم تذوق قرية زينب اضطراب مواعيد الرى ولم تجرّب بول الخيل يصبّ في الأفواه ولم تصرف قرية زينب زهو النصر، وهى تتحدّى القضاء، والإنجليز، والعمدة، والحكومة وتنتصر لبعض الوقت وزينب التى لم تكن أبدا على الرغم من كلّ شى جميلة كوصيفة لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمّها باكية كما صنعت الوصيف.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٣٤٤-٣٤٥)

كما ذكر سابقا إنّ الشرقاوى كاتب اشتراكى تقدّمى يعتقد بالصراع مع الاستعمار والإقطاع صراعا ساخنا مباشرا، فهو يجبّ عبدالهادى حبّا جمّا ويجعله بطلا في هذه الرواية لأنّ عبدالهادى لا يخيب ولا ييأس من الثورة ضدّ الإقطاع والظلم لحظة فهو شخصية ثورية يعلن الحرب ضدّ كل من يضطهد القرية ولو كانت الحكومة أو الإنجليز أو أى شخص من داخل أو خارج القرية: «عرف أنّ كلّ شىء مصيره يتعدّل مادامت

١. الثورة، الثورة ولاشئى. إذا كان الشعب يريد أن يعيش يجب أن يقدر على المحاربة. المحاربة مع العدو الذى يعرفه جيدا. أنت تقول نحن شعب حفاة عراة جياع مكتوف الأيدى. طيب إذن نحن باعتبارنا شعبا ماذا نفقد إذا نحارب؟

مصر ترفض أن تستعبد.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٢٤١) أما هذا الكاتب المصرى يشنّ هجوماً لا ذعاً إلى الشيخ يوسف ويستهزئ به لأنه مال إلى الثورة والمقاومة في البداية أمّا لم يلبث طويلاً حتى استسلم ورفع الراية البيضاء خاضعاً أمام الاستبداد والظلم.

نهاية الروايتين مفتوحة

إنّ الرؤية الواقعية هي رؤية متشائمة ومتأزّمة حيث إنّ الخير ليس فائزاً في نهاية الرواية، بل نرى في أغلب هذه الروايات أنّ الشرّ يهزم الخير وسيطر على المجتمع وهذا ما نراه في روايتي "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى حيث إنّ الأمر قد انتهى في "الأرض" إلى ضياع جهود الفلاحين اذ عبّد الطريق، وعلى الفلاحين أن يتكيفوا مع الواقع الجديد كما أنه لم يتمّ الإفراج عن زعماء القرية في دوار العمدة وهذا يصدق على رواية "كليدر" لدولت آبادى إذ انتهى الأمر إلى قتل "گل محمد" وأعوانه إلاّ "خان محمد" الذى يهرب ويحمل بوارق الأمل.

سيطرة الواقعية

يمكننا القول إنّ الالتزام الدقيق بأحداث التاريخ الحقيقية وشخصياته وأمكنته وزمانه يشير إلى لون من ألوان الرواية التاريخية ذى معيار محدّد هو الالتزام والأمانة والدقّة في التعامل مع المادة التاريخية ولا يكتمل هذا المعيار دون أن نلاحظ أثره في فنية الرواية وهو أثر سلبيّ غالباً لأنّ التغليب الحقيقى سيضيق الخناق على المتخيل فلا يترك له فرصة ابتداء الأحداث والأزمات، والأمكنة، والشخصيات الرئيسية وإذا استلّت هذا العناصر الفنية من التخيل فلن يبقى غير الهيكل العام للرواية. (روحي، ٢٠٠٣م: ٦٨)

فيما أنّ كلتا روايتي "الأرض" و"كليدر" تشير إلى حدث تاريخى معين فمن الطبيعى أن يغلب الجانب الواقعى على التخيلى لأنه كلما ارتفعت نسبة المادة التاريخية اضطرّ الروائى إلى التقيد بالأحداث الحقيقية، والشخصيات، والأمكنة، والأزمات وهذا يؤدّى إلى ضعف قدرته التخيلية الروائية، خاصّة في رواية "الأرض" للشرقاوى ولكن في رواية "كليدر" نلاحظ تجلّى الخيال أكثر من "الأرض" لأنّ هناك شخصيات خيالية مثل

"بلكيس" و"شيرو" بيدعها دولت آبادى وليس لها أثر في الواقع.

مسرح الأحداث

إنَّ أحداث كلتا الروايتين تحدث في الريف إلّا أنّ في "كليدر" لايزال يعيش الناس في المجتمع الريفى الطبقي والمتخلف حيث إنّ كبار الملاك وصغارهم في رأس الهرم يظلمون الناس دون أن يحاسبوا أنفسهم أو يحاسبهم أحد، فالحكومة لا تلعب دورا بارزا بل الدور الرئيس يعود إلى الملاك الذين يقننون وينقذون على أساس منفعتهم الشخصية، وبعبارة أخرى إنّ الحكومة لا تتدخل في شؤون الناس إلّا في مواقع خاصّة مثل الصراعات الطائفية، أو طغيان ونهضة تهدد مصالح الحكومة والملاك، أو أخذ الضرائب، فالثروات الطائلة للملاك والقدرة التي يحظون بها بسبب دعم الحكومة توفّران لهم كل شيء في رواية "كليدر" حتى يمكنهم أن يخرقوا حقّ الرعايا وينتهكوا عرضهم فهذا هو عين الأرباب "الاجاقى" على "شيرو" حيث يطلب من "بندار" أن يسمح لها لكي تعمل في بيته حتى يستطيع أن يستمتع بها، ولكن في رواية "الأرض" للشرقاوى إنّ المجتمع الريفى تقدّم خطوة حيث إنّ كلّ أهل القرية يقفون أمام مظالم الحكومة ولا يستسلمون وإنّ اعتقلوا واحتقروا بيد رجال السلطة. وبكلام آخر، في رواية "الأرض"، أهل القرية كلهم يقاومون أمام الحكومة طالبين استقرار المساواة، والحرية، والتوزيع العادل للثروات إلّا العمدة والشيخ الشناوى، وهما من عملاء الحكومة، سواء من كان يملك الأرض أو لا يملك، ولكن في "كليدر" لاتزال القرية لم تتخلص من عقدة الملاك والتمييز الطبقي.

الصراع

تقوم كلتا الروايتين على أساس الصراع، غير أنّ في "كليدر" يبدأ الصراع بإصرار الحكومة من أخذ الضرائب من "گل محمد" وامتناعه من تسديد الضرائب ولكن في رواية "الأرض" للشرقاوى يبدأ الصراع من تقسيط مياه الري من عشرة أيام إلى خمسة، فلذلك يمكننا القول إنّ الصراع في "كليدر" فردى ولكن في "الأرض" جماعى حيث إنّ

كلّ أهل القرية يدخل فيه؛ بعبارة أخرى أنّ "كلّ محمد" في "كليدر" يدخل في الصراع والحرب مع الحكومة بقتله مأمورى جابى الضرائب ثم يتّسع نطاق الصراع ولكن في "الأرض" يدخل كلّ أهل القرية في الصراع من البداية حتى النهاية، لأنّ الحكومة قامت بتقليل مدة الرىّ من عشرة أيام إلى خمسة وهذا ما يعارضه كل أهل القرية.

اللغة

تحتلّ لغة الراوى في الرواية وما يجرى الكاتب على السنة شخصيات الرواية، بأهمية بالغة في مجال الكلام عن التقنيات الجمالية للرواية. حيث إنّ الروايات التى تتحدّث عن الريف خاصّة في اللغة العربية تختلف عن اللغة المحكية للشخصيات وعلى سبيل المثال لا يستخدم الكاتب للفلاح لغة أدبية فخمة، بل إنّ الفلاح يتحدّث بعبارات بسيطة وعامية غير معقّدة، ولكن الشخصيات المثقّفة والأكاديمية التى تدخل في هذه الروايات تستخدم لغة أدبية فاخرة وفصيحة غالباً وهذا ما نراه في رواية "الأرض" حيث إنّ عبدالرحمان الشرقاوى يلتزم بهذا الأصل جيداً فهو يستخدم على سبيل المثال لشخصية "علوانى"، وهو من البدو النازحين ويرعى غنم أبيه، لغة عامية بدوية يذكّرنا باللهجة البدوية التى تستخدمها أهل الوبر وسكان البوادر لأنّه شخصية غير مثقّفة وليس له أى اطلاع بالعلم الحديث ولم يعيش إلّا في القرية: «يا مرحاب يا زين الفتيان.. مرحاب بالمجدعان.. انفضل شاي.. رريح هنا يا زين العرب والله شرفتنا.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٥٠) ولكن لمحمد أفندى باعتباره مدرّساً في القرية لغة فاخرة فهو في عريضة كتبها إلى الحكومة نيابة عن أهل القرية يقلّد أسلوب المنفلوطى ذاكراً إياه: «خلاص، بقى حاكتب أنا العريضة حاكتبها مقنعة تجمع بين الرجاء الهادئ والاستنكار الصارخ. حاكتبها بأسلوب المنفلوطى. وأخذ محمد أفندى يقول إنه كتب العريضة وأنّه من فرط الفصاحة قال: إنّ الفلاحين اذ قطعتم منهم خمسة أيام رىّ سيفرشون الغبراء ويلتحفون السماء.» (المصدر نفسه: ٧٢-٨٠) فهذه الجملة يذكّرنا بالجملات البليغة والملحمية للمنفلوطى.

والوضع يختلف بالنسبة إلى دولت آبادى، حيث إنّ هذا الكاتب الإيرانى في روايته

"كليدر" لا يلتزم بهذه الحدود والثغور بل يجتازها فهو يستخدم للشخصيات العشائرية لغة بسيطة وغير معقدة أحيانا ولكن في بعض الأحيان يتدخل نفسه باعتباره الراوي العالم بكل شيء في مسار الرواية ويتحدث بدلا من الشخصيات بلغة أدبية فصيحة وبعبارات فلسفية بعيدة عن شخصيات ريفية وهذا ربما يقلل من قيمة هذه الرواية. فعلى سبيل المثال وليس الحصر أن "نادعلى" وهو لم يدرّس ولم يقرأ إلا عند "بي بي" في القرية نراه يتحدث بلغة أدبية وفلسفية تستغربنا وتثير دهشتنا: «نيست هيچ نيست! چيست اين كه هيچ می نماید؟! تو کیستی و بود و نبودت را چه فرقی است؟ و.... اگر هست آیا بیش از فرق بود یا نبود موریانه ای است در انبوه قافله مورچگان، کورانه روان سوی هر سوی؟ وجود...وجود...! همه چیز در نظرم چرخ می زند، همه چیز می چرخد! به جز صدای سم اسب، محو شدن، نیستی، هر چه که می جنبد مرگش را می بینم.» (دولت آبادی، ۱۳۸۷ش: ۲۳۵۸-۲۳۵۹)

وجهة النظر (التبئير)

تزرخر رواية "كليدر" على عكس رواية "الأرض" بالتحليلات النفسانية الدقيقة والعقيقة عن الشخصيات. إنَّ الشرقاوى يختار التبئيرين لروايته "الأرض"، الأوّل هو التبئير الداخلى، والثانى هو التبئير فى درجة الصفر أو اللاتبئير فهو يبدأ روايته بضمير المتكلم «أنا أعرف قريتي تماما.» ثم نرى أنّ الراوى يغيب عن الرواية فى صفحة ٤٠ ولا يظهر إلا فى صفحة ٣١٣.

يختار الروائى اللاتبئير لأنّه يعى جيدا أنّ إضفاء الحياة على الشخصية الروائية يحتاج إلى رصد سلوكها الخارجية وأفكارها وأحاسيسها الداخلية وردود أفعالها على الحوادث الخارجية ولكنه يجد نفسه عاجزة عن التعبير عن دخيلة الشخصية بوساطة

١. ليس. لاشىء! ما هذا الذى يتجلّى كأنه لاشىء.. من أنت وماذا تفعل فى هذا الغموض بلا انتهاء؟ من أنت وما هو الفرق بين وجودك وعدمك؟ إذا كان هناك فرق، فهل أكثر من الفرق بين وجود نملة فى كتلة النمال وعدم وجودها والتي تتّجه عشوائيا إلى كل نحو وطرف؟ الوجود.. الوجود.. كل شىء يدور فى عيني، كل شىء يدور إلا صوت حافرة الفرس، صوت التلاشى... الاختفاء والعدم، إنى أرى الموت فى كل شىء يتحرّك.

الحوادث فيلجأ إلى الراوى العالم بكل شىء ليقدم بوساطته العبارات التى تنم عن هذه الدخيلة كفكر، وتمنى، ورغب وفرح. (روحى، ٢٠٠٣م: ١٥)

إذن اختار الشرقاوى اللاتبئير أو راويا عالما بكل شىء ولذلك لا يقوم بالتحليلات النفسانية الدقيقة عن شخصياته، أمّا محمود دولت آبادى فهو يختار مثل الشرقاوى اللاتبئير أو راويا عالما بكل شىء ولكن هذا ليس بسبب عجزه عن التعبير عن دخيلة شخصياته مثل الشرقاوى والدليل على هذا، الأوصاف النفسانية الكثيرة التى كانت الرواية تزخر بها حيث القارئ يدرك أنّ الكاتب يصف دخيلة شخصياته أفضل بكثير من أنفسهم: «در تير ناى عمق قهوه خانه، چشم‌هاى عباسجان ول ول مى زدند و لب پايينش يك تكه نم كبود فرو افتاده مينمود. گل محمد، قدم به درون قهوه خانه گذاشت و راست به طرف عباسجان رفت. عباسجان، لال شده ميمانست و سخنى هم به چاپلوسى اگر ميخواست بر زبان بياورد، نميتوانست. پس در عين خندهاى بي مزه و قبا سوخته، چشمانش را چون دو سكه بي ارزش، ناپايدار و حقير به گل محمد دوخته و چنان از خود رفته مينمود كه جمع و جور كردن لب پايينش را از ياد برده بود.» (دولت آبادى، ١٣٨٧ش: ٢٤٢٢)

ومن أجمل هذه الأوصاف النفسانية هي وصف مشاعر زيور: «جان من فدای تو، مرد. بيا، بيا. مثل مادری تو را به زیر بالهای خود جای می دهم. پهنای جان من قدمگاه تو است. چشمانم خاک راه تو. بر آن پای بنه. بر من پای بنه. سم بر بیابان جان من بکوب. بر من بتاز. تازیانها هم بز. گیسویم تنگ اسب تو باد. جانم را به تو میبخشم. به جای من بین، دم بز. نفس من از آن تو. زیور بلاگردان. این همه تو را و تو مرا. اما از من میرهیز. مگریز. من یخ می کنم. سنگ میشوم. گل محمد.»^٢ (المصدر نفسه: ١٢٤)

١. في جوف المقهى كانت عينا "عباسجان" تبصمان وشفته السفلى تبدو مثل قطعة لباد أزرق تهدلت. وضع "گل محمد" قدما داخلا لمقهى وذهب رأسا إلى جهة "عباسجان". كان "عباسجان" يبدو كالآخرس وحتى إن أراد أن يقول شيئا تلقا فهو لم يكن يستطيع. إذن ففي الوقت نفسه الذى سمر فيه عينيه الشبيهتين بمسكوكتين عديمتي القيمة غير ثابتتين وحقيرتين ضاحكا ضحكة عديمة الطعم باهتة على "گل محمد" ونسى نفسه بحيث أنه نسي أن يللم شفته السفلى.

٢. روحى فداك يا رجل. تعال، مثل أم سافسح لك تحت جناحي. اتساع روحى موطن قدميك. عيناي تراب طريقتك. دس على. دق حافرک على صحراء روحى. اجر سريعا على. اضربنى بالسوط

أمّا النقطة الثانية هي أنّ "كليدر" تدعو إلى التخلّص من التخرّب والأيدولوجية في الوقت الذي أنّ "الأرض" تدعو إلى التمسك بالتخرّب والأيدولوجية. يعتبر "ستار" في "كليدر"، رمز الأيدولوجية والتخرّب فهو ينتمى إلى حزب "توده" ولكنّه يميل عن جلسات الحزب بعد تعرّفه على "كل محمد" وأفكاره ويقرّر أن يضحيّ بنفسه لـ"كل محمد" والشعب، وحينما سأل "كل محمد"، "ستار" لماذا ترك جلسات الحزب وعرض نفسه للخطر بالتحاقه به ورهطه أجاب "ستار" قائلا: «تو خود از زبان من گفتى. من از آن قبيلهاى كه تو ميگوئى بريم و روبه تو آمدم. از آنكه ميخواهم آبروى عشق را حراست کرده باشم. فقط همين.» (المصدر نفسه: ٢٩٧١)

فدولت آبادى يبين في "كليدر" أنّه يعارض الانتماء لحزب معين على حساب الآخرين. وبكلام آخر، إنّهُ يخالف فكرة التخرّب والأيدولوجية لأنّ كلّ شيء فيها جامد ورتيب ويقوم على أساس إجابات مسبقة، حيث إنّهُ يتمّ قياس كلّ شيء بقياسات معينة وكلّ ما يخرج عنها تافه يجب إدانته وطرده، ولكن في العشق تلعب التضحية دورا رئيسا ومحوريا فلا يفكر الشخص في اتهام الآخرين وإلقاء اللوم عليهم بسبب أفكارهم بل يريد أن يحبّ الآخرين ويخدمهم وهذا ما نراه في شخصية "ستار" و"كل محمد" في "كليدر".

صحيح أنّ "كل محمد" بقتله المأمورين يُدخل نفسه في الصراع والحرب مع الحكومة، ولكن قلّما نجد الكاتب في هذه الرواية المطوّلة أن ينتقد الحكومة وحتى أنّنا لا نرى اسم حكومة خاصّة في "كليدر" على خلاف "الأرض" للشرقاوى، بل يسعى صاحب "كليدر" أن يشير إلى التمييز الطبقي ومظالم الملاك الصغار والكبار للرعايا وحياة الطبقة الكادحة وحياة الطبقات الفقيرة المعذّبة المسحوقة إلى الطبقات الثرية المسيطرة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ رواية "كليدر" لم تكتب على أساس أفكار حزبية بل كتبت لكي تعبّر عن مشاكل المجتمع الريفي بنظرة واقعية.

لتكن ضفائري زمام حصانك. أهديك روحى. أنظر نيابة عنى. تنفس. أنفاسى ملكك. زيور دافع البلاء عنك ولا تمتع على، لاتهرب. إننى أتلعج أستحيل صخرى يا "كل محمد".

١. أنت أجبت من لسانى، أنا انفصلت من هذا الحزب الذى تحدّثت عنه وملت إليك لأنى كنت أريد محافظة كرامة الحبّ ولاشياء.

ولكن إن رواية "الأرض" هي رواية سياسية أيديولوجية على خلاف روايات واقعية والتي تعبر عما يحدث في الواقع وعما يواجهه الناس. فعبارة أخرى، استخدم الشرقاوى هذه الرواية لكي ينتقد حكومة صدقى باشا ويختار الحكومة الماركسية كبديل لها فهو يشن هجوما لاذعا على الحكومة بسبب فقر وجوع الناس، في الوقت الذي تبعت الحكومة نقطة البوليس والعساكر إلى القرية لكي تمنع الفلاحين الجائعين عن نتيجة عملهم وتعبهم: «دا الناس من الجوع قربت تاكل بعض! والحكومة شاطرة تبعت لنا هجانة تدخلنا الدور من قبل آذان المغرب! قال الحكومة بعنا لنا عساكر؟ طب تبعت لنا درة! وهو يعنى الضرب دا حاشيع الناس على رأى الشاويش عبدالله؟ آه يا حكومة يا حكومة بلا معنى.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٣١٩) نلاحظ أن الشرقاوى يسمي حكومة حزب الشعب بحكومة بلا معنى لأنها لا تفكر في تحسين ظروف المجتمع ورفاهية الطبقة الكادحة فهو ينتقد حكومة صدقى لأنها لا تهتم بالفلاحين والطبقة الكادحة التي هي تحمل على عاتقها مسؤولية الإنتاج الكبيرة ولذلك يعتقد الشرقاوى أن مصر هي بلد الفلاحين: «هيه البلد دى بتاعتكم؟ أنتم فاهمين إيه؟ هيه بلد مين؟ دى بلدنا كلنا: بلد الفلاحين دول أولا! كفايه بقى شغل قطاع الطرق ده.» (المصدر نفسه: ٣٠٣)

النتيجة

- أما النتائج المهمة التي توصل اليها الباحثان إليها أثناء دراستهما، فهي:
- ١- تصوّر الرواية الواقعية الفلاح بريئا فقيرا مستغلا، والإقطاعى ظلما مستغلا ولعلّ تصوير جرائم الإقطاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين هو الموضوع الأول في الرواية الريفية في مصر وإيران.
 - ٢- إن أدب الريف، على الأغلب، يقوم على الصراع، ولكنّ الصراع في "كليدر" فردى قائم على مجهود شخصي ولكنه في "الأرض" جماعي، وهذا ينبعث من انتماء الشرقاوى الحزبي الاشتراكي الداعى إلى تعبئة الشعب والنضال الجماعي.
 - ٣- نهاية الروايتين مفتوحة والخير ليس فائزا في نهايتهما كما هو الحال في أغلب الروايات، بل إنّ الشرّ يهزم الخير وسيطر على المجتمع، وهذه الميزة تجعلهما في نطاق

الروايات الجديدة.

٤- يدخل دولت آبادي في رواية كليدر في لغة الشخصوص الطبيعية والمعروفة، ولا يلتزم بالحدود والثغور في هذا المجال، حيث يتدخل باعتباره الراوي العالم بكل شىء في مسار الرواية ويتحدث بدلا من شخصيات بلغة أدبية فصيحة وعبارات فلسفية بعيدة عن شخصيات ريفية ولكن عبدالرحمان الشرقاوى يلتزم بهذا الأصل ولا يتدخل في لغة الشخصوص.

٥- تجرى أحداث رواية "الأرض" على أساس مبادئ المذهب الاشتراكي وتدعو أحيانا إلى التمسك بالتحزب والشرقاوى ألف هذه الرواية بدوافع أيولوجية حزبية، ولكن رواية "كليدر" بعيدة عن هذه الأجواء وغير محاطة بهذه الأطر الضيقة.

المصادر والمراجع

- إسحاقيان، جواد. (١٣٨٣ش). كليدر رمان عشق وحماسه. تهران: نشر گل آذين.
- بشيرى، محمود. (١٣٩٠ش). "نفرين زمين" و سهم جلال آل احمد در داستان نويسى اقليمى و روستايى معاصر ايران. المطبوع في كتاب جلال پژوهى (مجموعه مقالات درباره جلال آل احمد). تهران: انتشارات خانه كتاب.
- چهلتن، امير حسين و فرياد فريدون. (١٣٦٨ش). ما نيز مردمى هستيم. تهران: نشر پارسى.
- حبيبي، محسن. (١٣٨٩ش). قصه شهر؛ تهران، نماد شهر نوپرداز ايرانى (با تاكيد بر دوره ١٢٩٩-١٣٣٢ش). تهران: مؤسسه انتشارات دانشگاه تهران.
- خفاجى، عبد المنعم. (١٩٨٩م). الأدب العربى الحديث. الجزء الرابع. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.
- دولت آبادى، محمود. (١٣٨٧ش). كليدر. تهران: فرهنگ معاصر.
- روحى الفيصل، سمر. (٢٠٠٣م). الرواية العربية البناء والرؤيا. دمشق: اتحاد كتاب العرب.
- سيلونه، ايناتسا. (١٣٥٣ش). نان و شراب. ترجمه محمد قاضى. تهران: انتشارات اميركبير.
- الشرقاوى، عبدالرحمن. (١٩٧٠م). الأرض. القاهرة: دار الكتاب العربى للطباعة.
- الشطى، سليمان. (١٩٧٤م). الرمز والرمزية في أدب نجيب محفوظ. رسالة جامعية في الماجستير. الكويت: جامعة كويت.
- شيرى، قهرمان. (١٣٨٦ش). مكتبهاى داستان نويسى در ايران. تهران: نشر چشمه.
- عبدالله، محمد حسن. (١٩٨٩م). الريف في الرواية العربية. الكويت: عالم المعرفة.
- عطية، أحمد محمد. (١٩٨١م). أدب البحر. مصر: دار المعارف.

أدب الريف في رواية "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى / ١٠٩

كمال، محمد على. (١٩٩٠م). عبد الرحمن الشرقاوى الفلاح النائر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وادى، طه. (١٩٩٦م). هيكل رائد الرواية. السيرة والتراث: دار النشر للجامعات.
يالوم، اروين. (١٣٩١ش). وقتى نيچه گريست. ترجمه سيده حبيب. تهران: نشر قطره.